أحمد محرم والملحمة الإسلامية

حسن علي شهاب الدين
- مصر -

خمسة وخمسون عاماً مرت على وفاة الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم ، ومما يؤسف له أنه في اللحظة التي ووري فيها جسد الشاعر الكبير التراب - تحديداً في يونيو ١٩٤٥ - فكأنما دفن معه ذكره وآثاره الخالدة . إنها مقولة حق يجب أن نعترف بها بل ونواجهها بكل شجاعة ، فأين اليوم من يذكر صاحب الملحمة الإسلامية ؟! هذا العمل الكبير الذي ترددت أصداؤه منذ ما يقرب من سبعين عاماً في صحف ومجلات العالم الإسلامي أجمع ، لا فرق في ذلك بين مصر أو الهند أو العراق ..

إنه من الغبن أن يطوي التاريخ هذه الصفحة المتألقة من تاريخ أدبنا العربي في عصر نهضته الزاهي، وأن يصبح اسم أحمد محرم في دائرة الظل بعد أن كان في سماء الشعر كأشد النجوم لمعاناً ، وإذا توقفنا اليوم نجوس خلال هذا الصرح الشامخ « الملحمة الإسلامية » فهذا ليس فقط قضاء لدين هذا الشاعر الكبير في أعناق أمته الإسلامية ، ولكن لأن من الواجب علينا وعلى الأجيال القادمة أن نطالع هذا السفر ونتخذ منه عنواناً لثقافة أدبية إسلامية راقية .

أحمد محرم صاحب السبق :

ولكن لنبدأ بالتساؤل هل كانت ملحمة أحمد محرم هي العمل الأول الذي عرفه تاريخ أدبنا الحديث أم سبقه أعمال أخرى للرواد الكبار ؟ وهل كان هذا العمل إرهاصا أم ولد هكذا مكتملاً ناضجاً ؟ ولنحاول أن نجد عند فرسان الشعر العربي في هذا الوقت : البارودي وشوقي وحافظ الإجابة على هذه الأسئلة.

كان البارودي كعادته سباقاً في محاولة نظم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالفعل أنجز قصيدته كشف الغمة في مدح سيد الأمة وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتاً ، وهي معارضة لقصيدة البوصيري الشهيرة « البردة ». وبرغم عظمة المحاولة فإننا لا نستطيع أن نسمي هذه القصيدة ملحمة إسلامية ، وذلك لأن البارودي حصر نفسه في دائرة المعارضة للبوصيري ، فجاءت كلها على روي الميم .. وهذا وإن كان لا يعيب القصيدة بالطبع إلا أن محاولة جمع السيرة الخالدة لنبي الإسلام في قصيدة واحدة مهما بلغ عدد أبياتها أمر صعب التحقيق .

ونحن إذا أمعنا النظر لاحظنا أن البارودي يمس الأحداث مساً رفيقاً حتى إن أحداث الإسلام الكبرى كانت تأخذ أماكنها في

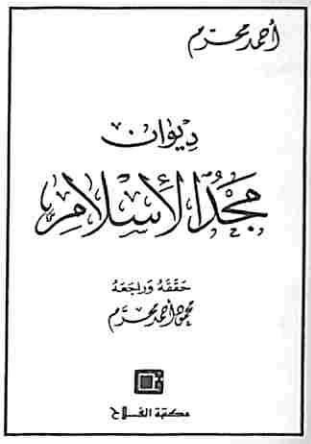

القصيدة على عجل ، وكان البارودي يمنح هذه الأحداث الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ عدة آبيات لا تزيد على عدد أصابع اليدين . ونحن لا نقلل من شأن هذه المحاولة الأولى في عصرنا الحديث ، ولكننا نقرر أن عمل البارودي الرائع لم يزد على كونه قصيدة طويلة رائعة .

أما شوقي في قصيدته الكبرى « كبار الحوادث في وادي النيل » فقد حاول فيها نظم التاريخ المصري كله في قصيدة واحدة على رويٍ واحد هو الهمزة ، وهو بذلك يشبه أستاذه البارودي في هذا الشأن . ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نضع هذه القصيدة إلى جانب قصيدة البارودي كإحدى محاولات الريادة لنظم إليادة إسلامية ، وذلك لأن شوقياً - رحمه الله - قد نظم التاريخ المصري فقط ، وما تاريخ الإسلام في مصر إلا حدث واحد ضمن أحداث عديدة مر بها هذا الوطن الكبير ، وبرغم أنه أهم هذه الأحداث جميعها إلا أنه ليس الأوحد بالطبع .

أما إذا نظرنا إلى مطولة حافظ إبراهيم التي نظم فيها سيرة الفاروق عمر بن الخطاب- عليه رضوان الله - فهي كسابقتها قصيدة طويلة تحاول رسم ملامح حياة شخصية كبرى في التاريخ الإسلامي ، وبرغم جدّة المحاولة وطرافتها فإننا يجب أن نقرر أن نظم سيرة شخصية عظيمة لا يُعد بحال من الأحوال ملحمة إسلامية . أما أحمد محرم فهو فارس هذا الميدان ، وديوان مجد الإسلام أو ملحمة الإسلامية هو الشاهد على أسبقية أحمد محرم في هذا المجال ، وأنه حين قام بهذا العمل الأدبي الجليل قد أهدى أدبنا الإسلامي درة في تاجه .

اللبنة الأولى :

ديوان مجد الإسلام عمل شعري ضخم كبير جسد ضخامة الحدث الذي تناوله ، سخر له أحمد محرم شطراً كبيراً من عمره ومن طاقته الفنية.

برغم اضطلاع شاعرنا أحمد محرم بهذا البناء الشعري الضخم وقيامه به خير قيام ، فإن الفكرة الأولى لم تكن له ، بل وجهه إليها السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح ، وذلك حين أرسل خطاباً إلى شاعرنا يقترح عليه فكرة ديوان يجمع بين دفتيه « مفاخر التاريخ الإسلامي الخلقية والعمرانية والسياسية والإصلاحية والحربية .. إلخ ، ونظم كل مفخرة منها في قطعة خالدة تنقش في أفئدة الشباب ، فإذا ذخر أدبنا بكثير من هذه القطع ، على اختلاف أوزانها وقوافيها أمكن بعد ذلك ترتيبها بحسب الوقائع وتأليف ملحمة إسلامية من مجموعها » (١)

وراقت الفكرة كثيراً شاعرنا الكبير فحشد طاقاته الإبداعية ، وترهب في محراب التاريخ ، ينهل من معينه الفياض ، ويغمر قلبه المؤمن بسمو فكرته ، وإذا بأحداث التاريخ تستحيل على يده كنوزاً من الشعر العالي النسق .

تحقق الحلم :

وبعصا سحرية من الفن الرفيع استطاع أحمد محرم أن يحقق حلماً طالما داعب خيال الشعراء من قبله ، وتمناه محبو الأدب والتاريخ ، والناظر في ديوانه الخالد مجد الإسلام أو الملحمة الإسلامية يدرك أنه أمام عمل شعري ضخم استنفد فيه أحمد محرم شطراً كبيراً من عمره وطاقاته الفنية ولم يبخل عليه بجهد .

وإذا أردنا أن نتأكد من هذا القول ما علينا إلا أن نتصفح هذا السفر الأدبي العظيم لندرك مدى الجهد المبذول.. وبنظرة سريعة ندرك أن الشاعر قد قسم ديوانه إلى أربعة

أجزاء ، تجد في الصفحة الأولى من كل جزء آيات تحث على الجهاد ، وفي الصفحة الثانية كلمات لبعض أئمة التابعين في علم المغازي والسير ، وكأني بأحمد محرم مهد بهذه الآيات القرآنية الكريمة ، وهذه الكلمات لكبار التابعين -رضي الله عنهم- لما سيصوغه علينا من لآلىء نظمه في التاريخ الإسلامي ، ولقد نجح في ذلك فعلاً .

وتحدث الشاعر في الجزء الأول عن حياة - الرسول صلى الله عليه وسلم- في مكة ، ثم عن هجرته ، ثم عن استقراره بالمدينة المنورة ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، وموقفه من اليهود والمنافقين .

ثم تحدث عن الغزوات ، وما وقع فيها من أحداث وبطولات ، فاستغرق بقية الجزء الأول والجزأين الثاني والثالث . والحق أن أحمد محرم في نظمه لأحداث المعارك الكبرى كان موفقاً إلى حد بعيد، ليس فقط في رسم مشاهد القتال وبطولات المقاتلين المسلمين ، ولكن أيضاً في تصوير مشاعر النفوس لدى المسلمين ولدى أعدائهم ، ليخرج بذلك قصائده عن رتابة النظم وينفخ فيها من روح الشعر الخالد .

وفي الجزء الرابع تحدث عن الوفود التي بعث بها الرسول - صلى الله عليه وسلم- إلى الملوك والحكام ، ثم تحدث بعد ذلك عن السرايا التي أرسلها النبي - صلى الله عليه وسلم -إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، وختمها شاعرنا الكبير بآخر عمل قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم- قبل لحاقه بجانب ربه الكريم ،وهو إرساله أسامة بن زيد- رضي الله عنه- على رأس جيش لغزو بلاد الروم (٢)

هذا هو ملخص ذلك العمل الشعري الكبير ، أما تفاصيله الكاملة فجاءت فيما يقرب من (٤٥٠) صفحة من الشعر الرائع، تضمنها ديوان مجد الإسلام أو الملحمة الإسلامية ، وهو العمل الذي افتقرت إليه المكتبة العربية عهوداً طويلة حتى جاء أحمد محرم فسدّ به فراغاً كبيراً في حياتنا الثقافية .

أصداء الملحمة الإسلامية :

يقول محمد إبراهيم الجيوشي المشرف على تصحيح الديوان ومراجعته في مقدمته الوافية : « من يطالع الصحف والمجلات منذ ثلاثين عاماً ، خاصة المعنية بالشؤون الإسلامية والقضايا الأدبية مثل الفتح والبلاغ وأبولو يجد آثار فرحة تملأ جوانب هذه الصحف ، ويتناقلها كتابها وأدباؤها ابتهاجاً بالبشرى التي أعلنها الفتح عن اضطلاع « الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم بتسجيل أمجاد العروبة ومفاخر الإسلام ».

اتسع مجال هذه الفرحة حتى شمل أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي في الهند والعراق أن هيأ الله للإسلام شاعراً مثل أحمد محرم يسجل مفاخره ويشيد بأمجاده ..

والحق أنه يصعب علينا أن نحصي ما كتبه الأدباء في هذا الشأن ، إلا أننا سنمثل لما كتب بكلمة الشاعر أحمد زكي أبو شادي في هذا المعنى حيث يقول :

«طبيعة أحمد محرم الأدبية فنية ناضجة ، فتاريخه ليس مجرد تاريخ ، إنما هو عرض فني شائق للروح الإسلامية العالية التي فتحت الأقطار ، ونشرت العدل ، واستوعبت الثقافة ، ودعمت الحضارة وزادتها تأنقاً ، وليس كل شاعر قدير كفؤاً لتسجيل ذلك تسجيلاً زاهياً هو اللباب النضر الحي ، وليس القشور الجافة والتواريخ الميتة »

هذا الشاعر العظيم الإيمان ، العظيم الشمم ، يمثل بأدبه حلقة مهمة من التطور الإسلامي الفني، فهو على

شيخوخته في قوة الشباب الذهنية ، وفي توثب الشباب الجريء ، وهو هو الشاعر الإسلامي الكبير الذي يستطيع بمواهبه أن ينصف روح الإسلام وسيرته ، وأن يكون القدوة لغيره من الفنانين وسواهم لتخليد روح الإسلام الفنية في آثارهم كما يخلدها في شعره لتربية الجيل الناشيء والأجيال تربية إسلامية عالية. (٣)

ديوان أم إلياذة إسلامية ؟

أطلق كثير من الكتاب على ديوان مجد الإسلام اسم الإلياذة الإسلامية ، وتعرض بعضهم بدافع الحماسة لموازنات ومقارنات بين ملحمة أحمد محرم وإلياذة هوميروس ، ولكنا بهذا نتطلب من أحمد محرم في ديوانه مجد الإسلام ما نتطلبه في الإلياذة من خصائص فنية ، فالإلياذة تعتمد على الأسطورة والمبالغة في رسم البطولات ، وسمح هوميروس لنفسه أن يسبغ على شخصياته من خياله ما يجعلهم في مصاف الآلهة بدون أن يهتم أيلتقي ذلك مع حقائق الواقع أم يتصادم معها ؟! كل مايهمه هو اكتمال صوره الفنية ، أما أحمد محرم في ديوانه مجد الإسلام فكان همُّه إلى جانب اكتمال صوره الفنية أن يلتزم بالصدق التاريخي. ونحن - معشر المسلمين- نرى أن جمال تاريخنا الإسلامي في صدقه ، ونرى أن بطولات هؤلاء الشامخين من الرعيل الأول أبلغ في صدقها من كل أساطير هوميروس في إلياذته ، وأعظم مما كتبه الفردوسي عن أبطال الفرس في الشاهنامة أيضاً *

مأساة النشر :

برغم الفرحة التي عمت الأوساط الأدبية ، والتي تقبلوا بها مشروع أحمد محرم الفني، إلا أن المأساة الحقيقية واجهها الشاعر حينما

شدا أحمد محرم بالإسلام في كل شعره، وجعل من ديوان مجد الإسلام خلاصة تجربته الفنية وقمة التزامه العقدي.

رحبت الأوساط الأدبية بديوان مجد الإسلام وأشادت به الأقلام الإسلامية في الصحف والمجلات في العالم العربي والإسلامي.

حاول نشر ديوانه الخالد .

وبدلاً من تقديم يد العون لشاعر الإسلام الكبير لمساعدته في المضي قدماً في سبيله ، نجد أن الدولة بهيآتها الثقافية قد صمّت أذنيها عن كل نداء صاح به الكتاب والأدباء في هذا الشأن ، ولولا همة أحمد محرم وقدرته على الصمود لشغلته مطالب الحياة ، وأقامت حواجز منيعة دون تحقيق هذا الهدف النبيل ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد إذاً لما حاول الشاعر أن ينشر ديوانه وطاف على المسؤولين وعلى رأسهم القصر الملكي الذي حول الديوان إلى وزير المعارف وكان وقتها د. محمد حسين هيكل ولم يتم نشره وكان هذا موقف وزارة الأوقاف ومشيخة الأزهر ومجمع اللغة العربية ، وكانت أمنية الشاعر أن يرى عمله بين أيدي الناس قبل أن تودعه الحياة ، إلا أنه توفي وفي نفسه النبيلة غصة وحسرة لكون العمل الخالد حبيس المخطوطات .

وبعد وفاته حاول أحد تلاميذ الشاعر وهو المرحوم إبراهيم نعيم ، جمع تراثه وعرضه على الهيآت الثقافية والإسلامية مجدداً المحاولة فلم يستطع إلا نشر نماذج منه في مجلة الأزهر على مرات متتابعة .

وتتابعت المحاولات من ابن الشاعر الأستاذ / محمود محرم مع وزارة الثقافة والإرشاد القومي إلا أن إدارة إحياء التراث لم تصل إلى نقطة حاسمة في سبيل إخراج تراث شاعرنا ، وهنا اتجه ابن الشاعر إلى إحدى دور النشر (٤) واتفق معها على طبع الديوان ، وأذن الله لهذا العمل أن يتحقق بعد أن ظل حائراً ثلاثين عاماً ، وكان ذلك في عام ١٩٦٣م .

ونحن بعد مرور سبعة وثلاثين عاماً على إصدار الطبعة الوحيدة لهذا الديوان نجد

مشقة كبرى في العثور عليه لأنه أصبح من مقتنيات المكتبات العامة ، وبهذا لا يستطيع القارىء العادي شراءه كغيره من كتب الأدب ودواوين الشعراء.

ونحن من هذا المنبر نجدد الدعوة لطبع هذا الديوان الخالد بل كل تراث أحمدمحرم الشعري لعل ما فيه من قيم أدبية ودينية راقية تثير في صدورشبابنا من كوامن الانفعالات النبيلة .

مختارات من الملحمة الإسلامية :

قال أحمد محرم تحت عنوان « مطلع النور الأول » (٥) ممتدحاً سيد الرسل :

املأ الروض يامحمد نوراً
واغمر الناس حكمة والدهورا
أنت أنشأت للنفوس حياة
وغيرت كل كائن تغييرا
أنجب الدهرُ في ظلالك عصراً
نابه الذكر في العصور شهيرا
كيف تجزي جميل صنعك دنيا
كنت بعثاً لها وكنت نشورا

وقال يصف شوق الأنصار لمقدم سيد الخلق صلى الله عليه وسلم تحت عنوان « من قباء إلى المدينة » (٦)

أقبل فتلك ديار يثرب تقبل
يكفيك من أشواقها ما تحملُ
القوم مذ فارقت مكة أعين
تأبى الكرى وجوانح تتململُ
يتطلعون إلى الفجاج ، وقولهم
أفما يطالعنا النبي المرسلُ
ما للديار تهزها نشواتها
أهي الأناشيد الحسان ترتل
رفّت نضارتها وطاب أريجها
وترددت أنفاسها تتسلل
فكأنما في كل مغنى روضة
وكأنما في كل دار بلبل

وقال تحت عنوان « غزوة بدر الكبرى » (٧)

ظمئت سيوفك يا محمد فاسقها
من خير ما تسقى السيوف وتنضح
فجر ينابيع الفتوح فريُّها
ماتستبيح من البلاد وتفتح
اليوم توردها الدماء فترتوي
وتردها نشوى المتون فتفرح
خذهم ببأسك لا ترعك جموعهم
فلأنت إن وزنوا الكتائب أرجحُ
ضلوا السبيل وفي يمينك ساطع
يهدي النفوس إلى التي هي أصلح

ونختم هذه المختارات بقول أحمد محرم في رثاءالرسول صلى الله عليه وسلم :

مات الرسول المجتبى ، مات الذي
أحيا نفوس الناس وهي رمائم
مات الرسول فكل أفق عابس
أسفاً عليه ، وكل جو قاتمُ
مات الذي شرع الحياة كريمة
والناس شرٌّ والحياة مآثمُ
مات الذي كانت عجائب طبه
تشفي العقول وداؤها متفاقم
دنيا الممالك بعد عصر محمد
حزن يجدد والعصور مآتم
صلى عليه الله إن قضاءه
حتمٌ ، وإن زعم المزاعم حالمُ

وبهذا نكون طوفنا في أرجاء هذا الصرح الشامخ آملين أن يتنبه أدباؤنا لما فيه من قيم فنية عالية وأن ينال الشاعرالكبير أحمد محرم بعض ما يستحقه ، ويستوفي بعض ما له في أعناق الأدباء من ديون .

١- مقدمة ديوان مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية «د» .
٢- مقدمة ديوان مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية «ي»
٣- مجلة الفتح ٢٦ من شوال سنة ١٣٥٣هـ
٤- دار العروبة بالقاهرة .
٥- ديوان مجد الإسلام ص٣ .
٦- المصدر السابق ص١٧ .
٧- المصدر السابق ص٣٥ .
٨- المصدر السابق ص٨٢ .
٩- المصدر السابق ص٤٥٠ .

* المنتظر من الكاتب بعدهذه المقدمة أن يجيب عن السؤال الذي جعله عنوانا للفقرة بالاختيار بين العنوانين ، والذي دلت عليه مقدمته أنه يميل إلى اختيار ما اختار الشاعر لديوانه «مجد الإسلام» لا ما اختاره الكتاب المبهورون بالغرب وضلالاته. « المحرر »